المحاضرة الثامنة: شعر الزهد والتصوف.

مصادر ومراجع المحاضرة:

- داود سليمان العنبكي، إنعام داود سلوم: كتاب العين
- ابن منظور: لسان العرب
- محمود لطفي نايف عبد الله: التجربة الزهدية بين أبي العتاهية وأبي إسحاق الإلبيري.
- مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب.
- وكيع بن الجراح: كتاب الزهد.
- سعاد ترشاق: محاضرات في النص الأدبي القديم.
- راضية لرقم: محاضرات في النص الأدبي القديم.
- فرقنيس رياض: دلالة رمز الخمرة في الشعر الصوفي (ابن الفارض أنموذجا)
- أبو القاسم عبد الكريم القشيري: الرسالة.

مفهوم الزهد لغة واصطلاحا:

مفهوم الزهد (لغة) : هو القلة، وهو الشيء الزهيد والقليل. وزهد فيه وعنه زهدا وزهادة أي: رغب عنه وأعرض وتركه لاحتقاره أو لتحرجه منه أو لقلته. والتزهيد في الشيء وعن الشيء: خلاف الترغيب فيه. والزهيد: القليل. وهو مزهد: قليل المال، ورجل زهيد العين: يقنعه القليل.

مفهوم الزهد اصطلاحا: لا يبعد المعنى الاصطلاحي للكلمة عن معناها اللغوي ، من حيث الدلالة على الإعراض عن الدنيا وعدم الرغبة فيها، واحتقارها، والتقليل من شأنها. كما يعني الابتعاد عن الخطيئة، والاستغناء عن الكماليات، وتجنب كل ما من شأنه أن يبعد عن الخالق.

وهو أيضا الإعراض عن الدنيا، بعدم تعلق القلب بها وبملذاتها، طمعا في نعيم الآخرة، والتمسك بالتقوى والعمل الصالح مع الكسب والعمل.

وقد ظهر تيار الزهد كردة فعل لانصراف الناس بالعراق في عصر الفتوح إلى المادة، ومتاع الدنيا، فانتشر الزهد وذاع جراء ذلك الظرف.

دوافع وأسباب نشأة شعر الزهد في المشرق: لقد كان السبب الأول في انتشار تيار الزهد؛ الدين الإسلامي نفسه، فقد جاء هذا الدين بقيم التوحيد والعبادة ، ومجاهدة شهوات النفس، والإقبال على الفضائل وإخلاص العبادة لله وحده، والانقياد لأوامره ، وتجنب نواهيه، وكان نتيجة ذلك أن سلك الكثير من المسلمين طريق الزهد في الدنيا. إلا أن المسلم الزاهد غير ملزم بترك أموره

الدنيوية، أو ترك مسؤولياته، بل هو مطالب باختيار الأسباب والوسائل المؤدية إلى بغيته في حدود الشرع، ومطالب بالجد والاجتهاد لصالحه وصالح المجتمع.

كما ساهمت الظروف السياسية في ظهور تيار الزهد؛ حيث أن الخلافات السياسية التي حدثت بين المسلمين منذ أواخر خلافة عثمان بن عفان، كان لها أثرا بارزا في حياة المسلمين السياسية والاجتماعية ، واستمرت إلى غاية خلافة علي بن أبي طالب فظهرت العصبية من جديد، وانقسم المسلمون إلى شيعة وخوارج وأمويين، وقد صاحب الخلاف السياسي خلاف ديني ، حيث أصبح كل فريق يلجأ إلى النصوص الدينية ليؤكد موقفه، ويؤيده، فنتج عن ذلك أن صار كل حزب سياسي بمثابة فرقة دينية تملك معتقدات معينة.

كما ساهم العامل الاجتماعي في انتشار تيار الزهد، فقد شهدت الدولة الأموية في فترة الفتوحات الإسلامية ازدهارا في الحياة الاجتماعية، بفضل الغنائم، فصار المسلمون يعيشون حياة الترف، وأقبلوا على ملذات الحياة، فظهرت مظاهر الانحلال الخلقي. وإثر ذلك وجد المسلمون أنفسهم ملزمين بدعوة الناس إلى طريق الحق ، والزهد في الحياة الدنيا.

موضوعات شعر الزهد عند أبي العتاهية: أهم المواضيع التي طرقها أبو العتاهية في زهده هي:

- تحقير الدنيا
- موضوع الموت وحتميته.
- القبور.
- الوعظ والنصح.

خصائص شعر الزهد عند أبي العتاهية:

- سهولة الألفاظ.
- رشاقة التعبير.
- التأليف عفو الخاطر وما يقترن بذلك أحيانا من الركاكة.
- عدم التفنن في الخيال.

مفهوم التصوف : العكوف على العبادة والانقطاع عن العمل، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه.

إن هذا الاسم (التصوّف) مأخوذ من (الصَّفاء) والصّفاء هو: خلوص الباطن من الشّهوات والكدرات.

فعلم التصوّف يهتم بصفاء القلب من الشّهوات كحبّ الرّئاسة وحبّ السّمعة وحبّ المحمدة من النّاس، وبصفائه من الكدرات أي الأمراض القلبيّة كالحقد والحسد والكبر والعجب والغرور وسوء الظنّ بالنّاس.

يقول ابن الجوزي :

ليس التصوّف لبس الصوف ترقعه ولا بكاؤك إن غنّا المغنّونا

ولا رقص ولا طرب ولا صريخ كأن قد صرت مجنونا

بل التصوّف أن تصفو بلا كدر وتتبع القرآن والعلم والدّينا

وأن ترى خاشعا لله مكتئبا على ذنوبك طول الدّهر محزونا

وما جاء هذا الاهتمام بالقلب، إلّا لأنّ القلب هو الملك على مملكة البدن في الإنسان، فإذا صلح الملك الرّاعي صلحت الرعيّة أي أعضاء جسم الإنسان المختلفة وجوارحه؛ من عين، وأذن، ولسان، ويد، وبطن، ورجل، وفرج. وإذا فسد القلب، فسدت جميع الجوارح.

العلاقة بين الشعر والتصوف: التصوف كتجربة روحية أُفْصِح عنها بالشعر، الذي مثّل الإطار الرّحب لتجربة المتصوّفين

والتصوف كتجربة روحية وجدانية يصاحبها التوتّر والقلق النّاتج عن الاغتراب الذي يحياه الصوفيّ، نتيجة رحلته الدّائمة والمستمرّة نحو المطلق بحثا عن الحقيقة الإلهية، ورغبة في تحقيق الوصال والفناء في حضرة الألوهة. فكان الشّعر الحقل الأنسب للتّعبير عن هذه التّجربة القلقة، المفعمة بثراء المعاني، والأخيلة المشحونة بطاقات إيحائية غزيرة صادرة من أعماق روح الصوفيّ المتأمّلة في الكون والموجودات.

كانت الحاجة للشعر عند المتصوفة كبيرة جدا. وبما أنّ الشّعر أقرب الأشكال التعبيريّة للنّفس البشريّة للتّعبير عن مشاعرها، والإفصاح عن تصوّراتها، ولأنّ تجربة الصوفيّ تجربة روحية وجدانيّة، فإنّ وشائج كثيرة تجمع بين الشّعر والتصوّف، لاقترانهما بالعاطفة والوجدان.

أسباب توظيف الرّمز عند المتصوّفة : من أبرز خصائص الشّعر الصوفيّ؛ ظاهرة الرّمز، إذ اصطنع المتصوّفة لغة خاصّة بهم للتّعبير عن حقائق علمهم، ودقائق تجاربهم الروحيّة. ويأتي استخدام الصوفيّة لمعجم لغويّ خاصّ بهم، غنيّ بالرّموز لأسباب عديدة هي:

- التّجربة الصوفيّة تجربة روحيّة متسامية، لا تتشابه مع التّجارب الحياتيّة العاديّة، لهذا فإن التّعبير عنها يتطلّب لغة مخصوصة.
- العلوم والحقائق الصوفيّة تجارب فرديّة، يكتسبها الصوفيّ بعد رياضات عسيرة، متدرّجا بين الأحوال والمقامات وصولا إلى الغاية المنشودة، وهي تحقيق الوصال، ووفق هذا، فإنّ التّعبير عن المعاني الصوفيّة التي لا تندرج ضمن إطار المحسوس أمر في غاية التّعقيد.

- الاستحفاظ على علومهم وأسرارها كي لا تشيع في غير أهلها. وفي هذا يقول القشيري: " اعلم أنّ من المعلوم أنّ كلّ طائفة من العلماء لهم ألفاظ يستعملونها فيما بينهم، انفردوا بها عمن سواهم، تواطؤا عليها؛ لأغراض لهم فيها: من تقريب الفهم على المخاطبين بها، أو تسهيل على أهل تلك الصّنعة في الوقوف على معانيهم لأنفسهم، والإجمال والسّتر على من باينهم في طريقهم، ؛ لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها"
- اتّقاء بطش وشرّ الدّوائر الدينيّة الممثّلة في الفقهاء ورجال الدّين المحتمين تحت ولاء السّلطة، لأنّ العداء الذي طال الصوفيّة ورجالها وشيوخها فاق كل التصورات. وهذا ما دفع بطائفة أهل التصوّف إلى ابتكار معجم لغويّ خاصّ بهم، قصد التّمويه بعبارات غير مألوفة.

رمز الخمرة عند المتصوّفة: للخمرة مكانة كبيرة في التّراث العربيّ، إذ تعدّ مادّة لا تخلو منها مجالس القوم، واحتساؤها رمز لعلوّ المكانة والشّأن زمن الجاهليّة، التي انتشرت فيها الخمّارات ومجالس الشّرب، وقد تغنّى شعراء العرب بالخمرة، ونظموا قصائد فيها عرفت بالخمريات، يصف الشّعراء فيها الخمرة وأنواعها وأذواقها وألوانها، ووصوا الكأس التي تشرب بها، وخاضوا في وصف مجالس الطّرب التي تصاحب نشوة الخمرة.

غير أنّ الخمرة عند المتصوّفة ليست حسيّة، وإنّما كانت في الشّعر الصوفيّ رمزا على الحبّ الإلهيّ.

عبّر الشّاعر الصوفيّ بالخمرة حين يغيب عن وعيه ويبلغ أقصى درجات الهيام والعشق، وحين يمتلئ قلبه محبّة إلهيّة. والخمرة رمز من رموز الصوفيّة الكبرى لمعاناتهم لحالتي السّكر والصّحو. والسّكر المقصود هنا حالة وجدانية يصل إليها الصوفيّ بعد أن يتدرّج في مقامات كالذّوق والشّرب، ثمّ يصل إلى حالة السّكر بعد انتشاء الجمال الربانيّ المطلق. ومن ثمّة فالسّكر غيبة تسبّبها رغبة عارمة في لقاء الله ، ورهبة من هذا اللقاء ، واندهاش وذهول بعد تحقّقه في إحساس الصوفيّ.